obeikandl.com

obeikandl.com

سفينة النجاة

فقد أبحرت سفينة النجاة منذ أربعة عشر قرنًا في بحر الحياة، وربانها معصوم لا ينطق عن الهوى، ولا يضل - عليه الصلاة والسلام - وقد قاربت على وصول الشاطئ.. ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** ﴾ (هود:٤١).

سفينة ركب فيها الصالحون فنجوا، وتخلف عنها الهالكون فهلكوا.

﴿ **وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ** ﴾ (هود: ٤٤).

فيا أرض الشهوات ابلعي ماءك، ويا سماء الظلمات أقلعي، فقد قُطع دابر الكفر والخراب في العالم يوم وصول هذه السفينة، وقد انطلق الهوى مع الإنسان ﴿ **حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا** ﴾ (الكهف: ٧١). فأخبره أن السفينة ﴿ **لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ** ﴾ (الكهف: ٧٩) في بحر الشهوات حتى أتى رسول الهدى ﷺ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ لأن من مهمته أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومهمة الهوى والشيطان أنهم ﴿ **يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

وصاياه عليه الصلاة والسلام

أوصى - عليه الصلاة والسلام - الصحابة بوصايا متنوعة، فأوصى واحدًا منهم كما في الصحيح: «**لا تغضب.. لا تغضب.. لا تغضب**».

فأوصاه - عليه الصلاة والسلام - بما يناسب شخصه.

قال بعض أهل العلم من المحدثين: إنما اختلفت وصاياه - عليه الصلاة والسلام - لاختلاف الناس وأحوالهم.

وأوصى - عليه الصلاة والسلام - رجلاً وهو عبد الله بُصر كما في الترمذي: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**».

وفي حديث آخر صحيح: «**أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**».

وهذا الحديث رواه ابن سلام، وهي وصية.

وأوصى - عليه الصلاة والسلام - عند أحمد أبا أمامة فقال: «**عليك بالصيام فإنه لا عدل له**».

وأوصى معاذًا في سنن الترمذي قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا**».

وذلك لما سأله عن شيء يقربه من الجنة ويباعده عن النار.

ووصاياه - عليه الصلاة والسلام - كثيرة، مرة في المعتقد، فقال لأبي ذر:

«**لا تشرك بالله ولو سحقت وحرّقت**».

ومرة في العبادة، فقال لمعاذ كما في أبي داود:

«**قل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

ومرة في الدعاء، كما قال في الصحيح لأبي بكر:

«**يا أبا بكر، قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**».

ومرة في الخُلق، كما مر معنا في حديث أبي ذر في نهيه ﷺ عن الغضب.

ومرة في التفكير في آيات الله - عز وجل - يوم قال لأبي جريّر الهُجَيمي:

«**أنا رسول مَنْ إذا أصابتك سنة فدعوته كشف الله عنك هذا القحط**». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وصية التقوى

هناك آيات في القرآن توصي بتقوى الله، وهي وصية الله للأولين والآخرين، ولما سأل أبو القاسم المغربي ابن تيمية شيخ الإسلام أتى بهذه الوصية في المجلد العاشر.

قال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ** ﴾ (النساء: ١٣١). فهي وصيته سبحانه: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (يونس: ٦٢، ٦٣، ٦٤).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ١).

فلا يأنف أحد من أن يقال له: اتق الله.

قال بعض الفطناء: «إذا رأيت الرجل يأنف من قول الناس له: اتق الله، فاعلم أنه قد باع نصيبه من الله».

وقال رجل لعمر: «اتق الله يا أمير المؤمنين».

قال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فيَّ إذا لم أسمعها».

وتقوى الله - عز وجل - نَصَّ عليها الكتاب والسنة بأحاديث وبآيات سوف أشرح بعضها في هذه الأسطر.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾(البقرة: ٢٠٦).

قالوا: من يكابر على النصيحة فهو من جنس من تأخذه العزة بالإثم. أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

تعريف التقوى

اعلم أن أهل العلم قد اختلفوا في تعريف التقوى على أقوال كثيرة..

فمنهم من نظر إلى أصلها في الكتاب والسنة..

ومنهم من نظر إلى مردودها..

ومنهم من عرفها بمنطق أهل السلوك وأهل أعمال القلوب..

تعريف ابن تيمية للتقوى:

قال ابن تيمية: «هي فعل المأمور واجتناب المحظور» وهذا كلام جيد جميل، وهو كلام علمي شرعي سني، هي فعل المأمور واجتناب المحظور، ولو قال شيخ الإسلام: تصديق الخبر، ليتم التعريف، ولكن هذا يدخل - إن شاء الله - في تعريفه.

تعريف أهل السنة:

قال أهل السنة وهو تعريف مشهور لهم: «أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، وهي أن تعمل بما أمر الله وأمر رسوله - عليه الصلاة والسلام - وأن تَنْتَهي عما نهى الله ونهى الرسول - عليه الصلاة والسلام عنه -».

تعريف ابن مسعود:

وأما ابن مسعود فقال: «تقوى الله أن يذْكَر فلا ينسى، وأن يُطَاعَ فلا يعصى، وأن يُشْكَر فلا يكفر».

تعريف علي بن أبي طالب:

قال علي فيما نسب إليه: «التقوى العمل بالتنزيل - وهو الوحي من الكتاب والسنة -، والرضا بالقليل، والخوف من الجليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

هذه هي التقوى، لكن ييسرها وهي أن تعمل بالكتاب والسنة أمرًا، وتنتهي عنها نهيًا، وأن تصدق خبرها، فإذا فعلت ذلك فقد نجوت من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ونجوت من الخزي والشقاوة.

كلام السلف في التقوى:

امتثل معاذ -رضي الله عنه- ذلك وقد شرحها هو كما ذكر ابن رجب عنه فقال: «التقوى هي أن تجتنب الشرك، وأن تطيع الله، وأن تخلص العبادة».

تعريف الحسن البصري:

قال الحسن البصري: «التقوى هي أن تؤدي ما لله عليك، وما للناس عليك من حقوق، وأن تجتنب ما نهى الله عنه» أو كما قال.

تعريف عمر بن عبد العزيز:

قال عمر بن عبد العزيز: «أما إنها ليست بقيام آخر الليل وبصيام الهواجر والتخليط بين ذلك - يعني بالسيئات -، ولكنها الانكفاف عن المعاصي».

obeikandi.com

تعريف طلق بن حبيب:

قال طلق بن حبيب - وهذا اعترف بتعريف شيخ الإسلام - قال: «هي العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله».

تعريف أبي الدرداء:

قد ذكر أبو الدرداء لها تعريفًا آخر وهو: «أن تكون مراعيًا ما لله عليك من حقوق».

تعريف أبي هريرة:

وسئل أبو هريرة عن التقوى فقال للسائل:

أمررت بوادٍ فيه شوك؟

قال: نعم.

قال: ماذا فعلت؟

قال: تحفزت وانتبهت.

قال: فهذه التقوى.

خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقي

كن مثل ماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يري

أما وصيته - عليه الصلاة والسلام - بالتقوى فإنه أوصى بها في أكثر من ثلاثين حديثًا، فقال لأبي ذر: «**أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس الأمر كله**».. رواه ابن حبان في صحيحه.

وقال عند أحمد في «المسند» بسند صحيح، عن أبي سعيد أن الرسول ﷺ قال له: «**أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام**».

وقد امتثل معاذ هذه الوصية منه - عليه الصلاة والسلام - فقد ذهب إلى اليمن فلم يأخذ من مال المسلمين شيئًا، فلما عاد إلى المدينة قالت له زوجته: «أما أخذت مالاً نفعتنا به»؟

obeikandl.com

قال: إن عليّ ضاغط، قال ابن رجب يقصد: المراقبة والمحاسبة.

وهذا ذكره في جامع العلوم والحكم.

كأن رقيبًا منك يرعى مسامعي

وآخر يرعى مسمعي وجناني

ورأيت في ترجمة رجل من بني إسرائيل أنه اختفى في غابة، فأراد أن يفعل معصيةً، فقال: ما يراني أحد، ولا يعلم بي أحد، فسمع هاتفًا يقول:

﴿ **أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (الملك: ١٤).

وأوصى بعض الصالحين ابنه قال:

أريد سفرًا، قال:

«اتق الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين، فهو لا تخفى عليه خافية، سبحان الله العلي العظيم».

محمد ﷺ في بيته الطيني في المدينة تدخل عليه خولة بنت ثعلبة فتشكو إليه زوجها، والله فوق سبع سماوات يخبره بشكواها، وعائشة في البيت نفسه لم تسمع بذلك، فيقول:

﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ (المجادلة: ١).

فهذا هو اللطيف الخبير الذي هو قريب - سبحانه وتعالى - يرى ويسمع ويبصر.

أحد العُبَّاد اسمه حبيب أبو محمد، كان يبيع ويشتري، فكان يبيع الدرهم بدرهمين ربًا، ولكنه جاهل ناسك عابد، فمر بصبيان قالوا: أنت المرابي أنت حبيب المرابي - ذكره ابن رجب - قال: «سبحانك يا رب فضحتنا أمام الناس».

قال: فتاب إلى الله - عز وجل - من الربا، وسأل أهل العلم ثم تصدق بأمواله، فعاد إلى الصبيان فقالوا: مرحبًا بك يا أبا محمد.

obeikandi.com

قال: سبحانك أنت الذي تمدح، وأنت الذي تذم.

وهذا كلام جيد ويوصف به - سبحانه وتعالى - فإن مدحه زين وذمه شين.

أتى بنو تميم إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعد الظهيرة وطرقوا بابه وقالوا: اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين، يقولون: نحن إذا مدحنا مدحنا، فاحذر ذمنا، وحاول أن تكسب مدحنا، قال عليه الصلاة والسلام:

ذلكم هو الله، الذي مدحه زين هو الله، والذي ذمه شين هو الله.

فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات: ٤).

وإلا فالمادح حقيقة هو الله، فإذا أثنى الله على العبد بقلوب العباد فمدح العبد، وإذا ذم بقلوب العباد فإن العبد مذموم مسبوب؛ ولذلك تقال في بعضهم آلاف القصائد وهو مذموم عند الله، ويهجى بعضهم بآلاف القصائد وهو ممدوح عند الله، فالحب من عنده، والبغض ينزل من السماء ما يأتي من الأرض.

أتبع السيئة الحسنة

وقوله ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**».

معنى ذلك أنك إذا قدحت في مسمى التقوى الذي أوصى به الرسول ﷺ فإن عليك بالعلاج.

قال عليٌّ فيما ذكره الغزالي في «الإحياء»:

عجبًا لكم عندكم الداء والدواء!!

قالوا: ما هو الداء، وما هو الدواء؟

قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار.

ونحن عندنا دواء من صيدلية محمد ﷺ، صحي ولا يتعالج به إلا الربانيون الذين كلما عثروا أو مرضوا عرضوا أنفسهم على محمد ﷺ فعالجهم، ولكن ما استخدمناه..

إذا مـــــرضنـا تداوينـا بذكـــــركم

ونتــرك الذكــر أحــيــانًا فننتكس

فهو علاج يصرفه ﷺ.

قال: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»:

دل على ذلك القرآن.

قال المولى سبحانه: ﴿ **وَسَارِعُواْ إِلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

يروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه سئل:

كيف تكون الجنة عرضها السماوات والأرض؟

أين السماء والأرض والجنة عرضها السماوات والأرض؟

قال: أين الليل إذا أتى النهار؟..

وهذا قياس صحيح أصلي، فأين الليل إذا أتى النهار؟!

قال: ﴿ **عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٣٣، ١٣٤).

هذا صحيح: فمن يعفو ويحسن يدخل الجنة، ولكن اسمع هذا:

﴿ **وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٣٥، ١٣٦).

فليفعل عبدي ما شاء

في الصحيحين، قال: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أذنب عبد ذنبًا فلما أذنب قال: يا رب أذنبت ذنبًا فاغفر لي، فغفر الله له، ثم أذنب ذنبًا فقال: رب**

اغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فغفر له، فأذنب ذنبًا فقال: يا رب اغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال الله: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا فليفعل عبدي ما شاء».

هذا في الصحيحين بهذا اللفظ والمعنى عند أهل العلم حتى لا يفهم فهمًا خاطئًا: معناه كما قال النووي: أن عبدي ما دام أنه كلما أذنب تاب واستغفر فإنه سوف ينجو، وليس المعنى أن عبدي هذا أو أن العبد مهما كان - اسم جنس - أن هذا العبد يذنب الذنوب فإن الله سوف يغفر فهذا لا يكون، ومن فعل ذلك أو ظن ذلك أو اعتقد ذلك فقد تمنى على الله الأماني.. ﴿**لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ (النساء: ١٢٣).

سهر ابن عباس ليلة كاملة في الحرم يقرأ ويردد من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر: ﴿**لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ (النساء: ١٢٣).

قال عطاء: «والله لقد رأيت إلى جفنيه كشراك النعلين الباليين من البكاء، لأنه يفهم القرآن».

ورأيت في سيرة أبي بكر أن الرسول ﷺ قرأ عليه الآية والصحابة جلوس، فقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾(النساء: ١٢٣).

فتماط أبو بكر حتى سمع لظهره نقيض.

قال ﷺ: «ما لك يا أبا بكر غفر الله لك؟

قال: يا رسول الله، كيف العمل بعد هذه الآية؟ يعني كيف النجاة؟

فقال: غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟.

ألست توصب؟.

أما تصيبك الحمى؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: فوالذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا وصب ولا غم ولا حزن ولا مرض حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من سيئاته».

ما أصر من استغفر

في الترمذي والسند ليس بالقوي: «**ما أصر من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة**»، ومعناه صحيح لكن سنده ليس بالقوي.

فإن العبد لو ارتكب - مثلاً - ذنبًا في يوم، ثم استغفر وتاب على ألا يعود غفر الله له، ثم عاد فكتب عليه الذنب، ثم استغفر وتاب غفر الله له، ثم عاد ثم استغفر وتاب غفر الله له، وهكذا، لا أن المعنى أن يضحك على الله كما يضحك على الصبيان، ويلعب على الله كما يلعب على الولدان، فإن بعضهم يقول: أذنب ثم أتوب، فإذا غفر الله لي أذنب ثم أتوب وهكذا، وهذا من قلة وعي بعض الجهلة.

يروى أن بعض الجهلة في بعض المناطق نزل في غدير في يوم رمضان، فلما غاص في الماء شرب، ولما خرج قال لزميله: الله لا يعرف حيلات الرجال.

روى الطبراني بسند ضعيف عن عائشة، قال حبيب بن الحارث:

«**يا رسول الله، إني رجل مقراف للذنوب**»..، يعني من طبيعته أن يقترف الذنوب، والله هو الذي خلق الأنفس، لأنه يقول سبحانه وتعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ**﴾(النساء: ٣٢).

فهو أعلم بنا سبحانه.

قال: يا رسول الله، إني رجل مقراف للذنوب.

قال عليه الصلاة والسلام: تب إلى الله.

قال: فأعود.

قال: تب إلى الله.

قال: فأعود.

قال: تب إلى الله.

قال: إلى متى يا رسول الله؟

قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور».

التائب من الذنب كمن لا ذنب له

أما حديث: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

فقد رواه ابن ماجة وحسنه حافظ الدنيا ابن حجر بشواهده، وشرح هذا ابن تيمية في مختصر الفتاوى وأيده، وقبل الكلام، وكأنه والله أعلم يتحمس لمعناه ومعناه صحيح، فإن من تاب من الذنب ليس له ذنب.

قال بعض العلماء: «من العار أن تعير من كان في العار ثم تاب للواحد القهار».

ولذلك من الخزي والعار على الإنسان أن يعير أناسًا بذنوب كانت في الجاهلية، كرجل مثلاً كان يشرب الخمر وكان مشهورًا بذلك، ثم تاب وأناب وأصبح في الصف الأول في الروضة، وأصبح تاليًا لكتاب الله وداعيًا إلى الله، فإذا أمر قال: اسكت أنت كنت تشرب الخمر!

سبحان الله! عمر بن الخطاب كان يعبد الصنم، وهو أفضل من مسلمي الكرة الأرضية في هذا الوقت كلهم.

ومن الذي له الحسنى فقط؟

ومنهم من قتل مئة نفس وتاب الله عليه.

ومنهم من غش وخان وغدر وتاب الله عليه.

المؤمن واهٍ راقع

ويروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال:

«**المؤمن واهٍ راقع فسعيد من هلك على رقعه**».. رواه الطبراني في «الكبير» وفيه ضعف؛ لأن في سنده سعيد بن خالد الخزاعي وهو ضعيف.

obeikandl.com

ومعنى الكلام: «**المؤمن واه راقع**».. واه يعني دينه كالقربة، فتجد له ثلوماً، وتلك الثلوم لا يخلو منها أحد، حتى يقول ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: «لا يخلو المرء من جروح، لكن الله الله لا تكون الجروح في الوجه».

فكل يوم ونحن في مقاتلة مع صف الشيطان حتى يأتي النوم، فاحذر أن يأتي الجرح في الوجه.

إن اللبيب إذا شكا من جسمه

مرضين مختلفين داوى الأخطر

وقال: واهٍ واقف بالاستغفار وبالعمل الصالح والمكفرات.

قال: من هلك على رقعه، أي من مات وهو راقع فالحمد لله، فهذا السعيد.

أما من مات على وهيه وعلى خلقه فهذا في خطر.

ويل لأقماع العقول

قال - عليه الصلاة والسلام - فيما ذكره أهل العلم عنه:

«**ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، وويل لأقماع العقول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون**».. رواه أحمد في «المسند» والبخاري في «الأدب المفرد» والخطيب في «تاريخ بغداد» وسنده يقارب الحسن.

أما قوله - وهذا الشاهد -: «**اغفروا يغفر لكم**» سامحوا الناس يسامح الله لكم، والجزاء من جنس العمل.

وأما أقماع العقول فهم الذين يستمعون القول فلا يدخل الكلام قلوبهم ولا يتعظون به؛ لأن المؤمنين إذا استمعوا القول اتبعوا أحسنه.

لا كبيرة مع الاستغفار

قال ابن عباس - ولا يصح مرفوعًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام -:

«**لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار**».

obeikandl.com

والمعنى أن صاحب الكبيرة كلما استغفر وأناب وتاب غفر الله له، وأن صاحب الصغيرة إذا أصر عليها وداوم عليها واستمر أصبحت كبائر، أو يهلك صاحبها بها.

وجاء في السنن أن الرسول ﷺ وصف صاحب الصغائر بقوم ذهبوا في الخلاء فجمعوا حطبًا صغيرًا، فجمع هذا عودًا وهذا عودًا، وهذا عودًا ثم أججوا نارًا عظيمةً، فالصغائر تجتمع على العبد حتى تهلكه والعياذ بالله.

الفرق بين الاستغفار والتوبة

فرق شيخ الإسلام ابن تيمية بين الاستغفار والتوبة فجعل المكفرات عشراً:

الأولى: الاستغفار.

والثانية: التوبة.

وبعض الناس يجعل الاستغفار التوبة، وأنا أقول كلمة:

إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فإذا جمعت الاستغفار مع التوبة فتفترق، فالاستغفار يعني شيئًا، والتوبة تعني شيئًا آخر، وإذا ذكر الاستغفار وحده في القرآن فيدخل فيه التوبة.

وإذا ذكرت التوبة وحدها في القرآن يدخل فيها الاستغفار.

وقد أفاد ابن تيمية:

أنه قد ينفع الاستغفار بلا توبة، وهذا سر بيني وبينكم لا تخبروا به أحدًا!، فلو أخبرتم به أحدًا تهالك الناس في الذنوب بحجة أنهم يغفر لهم بالاستغفار، لكن ابن تيمية أفاد: أنه قد ينفع الاستغفار بلا توبة، يعني أن الذي يذنب فيقول: أستغفر الله، أستغفر الله نفعه.

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة:

أن رجلاً في الكوفة حل معبده أعراب فقالوا: لا تسكن معنا إلا بالاستغفار فإنه لا ينزل القطر (المطر) إلا بالاستغفار، وهذا صحيح ومصداقه في سورة نوح:

obeikandi.com

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (نوح: ١٠،١١).

وقد قحطت مزرعة أنس في البصرة، واشتد ظمؤها، وذبل ورقها، فجلس بجانب المزرعة يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

قالوا: أتستغفر والزرع قد مات!، قُمْ صلِّ.

قال: الاستغفار معه القطار (المطر).

قالوا: فما انتهى إلا وغمامة روت مزرعته حتى أمرعت.

فوائد الاستغفار

إن المستغفر لا يهلك:

قال جعفر الصادق: لو نزلت صاعقة من السماء لأصابت الناس جميعًا إلا المستغفر..

﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣).

المتاع الحسن للمستغفر:

قال أهل العلم: ومن أراد المتاع الحسن فعليه بالاستغفار..

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (هود: ٣).

والاستغفار ليس كما يرى بعض الناس أن يكون باللسان فقط ويفعل باليد كمن يسرق من السوق ويقول: أستغفر الله، ويسحب الغرض ويقول: أستغفر الله، أستغفر الله.

أو كمن يشرب الخمر والكوب بيده ويقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، فهذا كذاب واستغفاره يحتاج إلى استغفار.

obeikandl.com

رأى علي بن أبي طالب رجلاً يستغفر الله وقلبه في وادي سمائل فقال: استغفارك هذا يحتاج إلى استغفار.

وقال أحد الصالحين: أستغفر الله من قولي أستغفر الله.

لكن على كل حال لا بد من التقوى، ولا بد من الاستغفار بأن تستحضر في قلبك أن تقول: أستغفر الله.

قد تكون أستغفر الله غيبة، ويكون الدعاء غيبة

قال بعض أهل العلم: وقد تكون أستغفر الله غيبة، فقد دخل أحد الناس الواشيين النمامين على أحد السلاطين، قال السلطان لهذا الواشي: ما رأيك في فلان؟

قال: أستغفر الله، قصده نكاية بذاك، فهي غيبة عليه وزرها، فهذا الواشي ما قصد أستغفر الله، قصده انتبه له.

وقد يكون الدعاء غيبة، وقد يكون سيئة، كقولهم إذا ذكر أحد الناس: هدانا الله وإياه، فإنك اغتبته. ذكر ذلك شيخ الإسلام في فتاويه.

قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ﴾(النساء: ١٧).

قال أبو العالية من أئمة أهل السنة: من عصى الله فهو جاهل؛ ولذلك يغفر لمن عصى الله ثم تاب وأناب.

مسائل في التوبة

أولاً: شروطها

- **العزم على ألا تعود:**

وذلك أن تعزم من هذا المكان وهذا الوقت ألا تعود إلى ما أخطأت.

obeikandi.com

● **الندم على ما فات:**

دائمًا تتقلب وتتأوه، فإن وله النادمين وتأوه الباكين أحب إلى الله - عز وجل - من زجل العابدين.

وقال عمر: اقتربوا من أفواه التائبين فإنهم يلقنون الحكمة.

مَن يتألَّى على الله؟

في الحديث الصحيح: «**إن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان من العصاة**».

قال الله: «**من الذي يتألَّ عليَّ؟.. أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت لهذا، وأحبطت عمل هذا، فليستأنف العمل**».

فذاك مبتهج يفخر بعمله، وذاك انكسر فغفر الله له.

وقد رأيت في سيرة عيسى - عليه الصلاة والسلام -: «أنه ذهب إلى بيت المقدس ومعه رجل من العصاة من شرَّاب الخمر، فأراد عيسى - عليه الصلاة والسلام - أن يدخل بيت المقدس.

قال السارق وهو شارب الخمر: مثلي لا يدخل بيت المقدس لأنني أدنسه.

فأوحى الله إلى عيسى: «**يا عيسى، أخبره وبشره أني قد غفرت له ما تقدم من ذنبه**».

ما دام أنه انْكَسر أمام خالقه، ما دام أنه أقر واعترف فكان جزاؤه المغفرة.

وقفنا على الباب يا ذا الملك

وجئنا ببابك والملك لك

ذرفنا الدموع بدنيا الخشوع

وقلب من الحب قد سَبَّحَك

على الباب فقط، لا يفتح لك باب إلا بابه، وليس لك حبل أقوى من حبله، وما معك طريق إلا طريقه.

obeikandl.com

مصرع تائب

يقول علي بن الحسين زين العابدين: «قمت في آخر الليل أطوف بالبيت، فإذا شاب متعلق بأستار الكعبة يقول: يا رب من يقبلني إذا رددتني؟

قال: فجلست أبكي عند المقام.

قال: فسقط فذهبت إليه فإذا هو قد مات».

ومما يروى عن علي بن الحسين أنه قيل له: «قل لبيك اللهم لبيك - وهو حاج على الناقة - قال: أخشى أن ألبي وفي نفقتي شيء فيقال لا لبيك ولا سعديك».

قالوا: لبّ، فلبى فغشي عليه فسقط كما قال ابن كثير.

وقد قال الفرزدق فيه:

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ،

وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

هذا ابنُ خَيرِ عِبادِ اللهِ كُلّهِمُ،

هذا التّقيُّ النّقيُّ الطّاهِرُ العَلَمُ

هذا ابنُ فاطمَةٍ، إنْ كُنْتَ جاهلهُ،

بِجَدّهِ أنْبِيَاءُ اللهِ قَدْ خُتِمُوا

سَهْلُ الخَلِيقَةِ، لا تُخشى بَوَادِرُهُ،

يَزِينُهُ اثنانِ: حُسنُ الخَلقِ وَالشّيمُ

ما قال: لا قطُّ، إلاّ في تَشَهُّدِهِ،

لَوْلا التّشَهّدُ كانت لاءَهُ نَعَمُ

يُغْضِي حَياءً، وَيُغضَى من مَهابَتِهِ،

فَمَا يُكَلَّمُ إلاّ حِينَ يَبْتَسِمُ

في كـفـه خـيـزران ريحـهـا عـبق

مـن كف أروع في عـــرنينه شـــمم

يكاد يمسكه عـــرفـــان راحـــتـــه

ركن الحطيم إذا مـا جـاء يسـتلم

مُـشْـتَـقّـةٌ مِنْ رَسُـولِ الله نَبْـعَـتُـهُ،

طَابَتْ مَـغـارِسُـهُ والخِـيمُ وَالشّـيَمُ

رد مظالم العباد

فلا تأخذ أموال الناس، وتسرق أموال الناس وتحلف على ديون الناس وتقول: تبت إليك يا رب. أين التوبة؟

حقوق الناس مبنية على المشاحة، وحقوق الله مبنية على المسامحة.

فأنت إذا أذنبت مع الله من الأرض إلى السماء وتبت إليه غفر الله لك، وإذا أذنبت مع العبد بقي معك وزره يلحقك إلى يوم القيامة إن لم يتب الله عليك، فالعبد شحيح، أما الله فرحيم.

الشافعي حضرته سكرات الموت فلما ضاقت به الضوائق، وكان شاعرًا رفع المخدة وتلفت إلى السماء وقال:

ولما قـسـا قلبي وضـاقت مـذاهبي

جـعلت الرجـا منـي لعـفـوك سلمـا

تعـاظمني ذنبي فلمـا قـرنتـه

بعـفـوك ربي صـار عـفـوك أعظمـا

ما أعظم عفوه سبحانه!

obeikandl.com

● **الثاني:**

فضل التائبين

قال ابن تيمية: أعظم المنازل منزلة التائبين، وقد تعجبت لهذه لأنه نقلها ابن القيم في مدارج السالكين حتى عدت إلى تفسير قوله سبحانه وتعالى:

﴿**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**﴾ (التوبة: ١١٧).

الله أكبر، أفنوا أجسامهم وأوقاتهم ودماءهم وأموالهم ودموعهم في غزوة العسرة في الشمس والجوع والظمأ، والله ينزل عليهم من السماء: ﴿**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**﴾.. يقول: أبشروا تبنا عليكم.

قال ابن تيمية: وختم الله حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - بـ:

﴿**إِذا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا**﴾ (النصر: ٢،١).

هل قال له: استبشر بالمنزلة العالية؟

هل قال له: ادخل الجنة؟

هل قال له: قصرك في الجنة كالربابة؟

بل قال:

﴿**وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾ (النصر: ٣).

نرى جهدك كبيرًا، لكن استغفر.

نراك بذلت وأعطيت، لكن استغفر.

نراك منحت وقدمت وضحيت وفديت وتعبت وسهرت، لكن استغفر.

قال ابن تيمية: وختم رسول الله ﷺ الصلاة بالاستغفار، فالمصلي يسلم من الصلاة - وهى صلاة لله وليس لأحد - ثم نقول: أستغفر الله ثلاثًا.

وختم الله الحج بالاستغفار:

﴿ **فَإِذا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (البقرة: ١٩٨،١٩٩).

هذه أسرار في دين نبينا محمد ﷺ يفهمها أهل العلم، كشيخ الإسلام وغيره.

فرح الله بالتائب

أما فرح الله بالتائب فيكفي هذا الحديث:

«**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم كان في فلاة ضاعت منه ناقته عليها طعامه وشرابه**»..

انظر الوصف الدقيق، والرسول ﷺ تربوي يعلم الناس بأمثال؛ ولذلك يقول أهل التربية ومن ألف في فن الخطابة: إذا أردت أن تلقن للناس المعاني فشخصها بالصور.

فلو قال الرسول ﷺ: «**لله يفرح بتوبة عبده**» لنسيت العبارة، لكن قال: كالرجل.

تصوروا الرجل أمامكم في الصحراء، وفي الصورة معه ناقته والناقة واقفة وعليها الطعام والشراب، فلما ضاعت وبحث عنها فلم يجدها نام جائعًا ظمآن، فلما قام في الصباح وجدها عند رأسه، فمن شدة فرحه قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح.

والذي يظهر أنها وقعت، والله أشد فرحًا بتوبة العبد إذا عاد إليه.

الله لا يريد أن يعذب العباد، ومن ظن أن الله يريد أن يعذب العبد فقد أساء الظن بالله، بل الله رحيم يفرح بتوبة العبد.

obeikandi.com

فإذا أردت أن تُفْرح الله وله فرح يليق بجلاله فتب إليه، حتى قالوا: «الله أفرح بتوبة العبد من شفاء الولد عند الوالد، ومن وجدان الضائعة عند الواجد، ومن حصول الماء عند الوارد».

مما يتاب منه

يتاب من الصغائر والكبائر من الذنوب، ومن الخطايا، بل قال أهل العلم: «يتاب من الكبائر ومن الصغائر وفضول المباحات».

وفي صحيح مسلم قال الرسول ﷺ:

«إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة»...

قال بعضهم: يغان: الغين غشاء يقع على القلب، ليس من الذنوب، ولكن من كثرة مخالطة الناس ومن مكالمة الناس، فلصفائه ﷺ، ولتقواه ظهر الغين عليه.

أما نحن فغانت وغانت وطبعت وأصبحت كالجبال، لأن الثوب الأبيض تظهر فيه النقاط، أما الثوب الأسود فلو طليته بالقار ما أثر فيه.

يابن الذين سما كسرى لجمعهم

فجللوا وجهه قاراً بذي قارِ

والمستجير بعمرٍ عند كربته

كالمستجير من الرمضاء بالنارِ

قيل لابن الجوزي: ما الأحسن عندنا الاستغفار أم التسبيح؟

قال: الثوب الوسخ لا بد له من الغسل قبل الكي.

فالتسبيح مثل الكي، وأما الغسل فإنه الاستغفار.

فنحن نحتاج إلى غسل واستغفار، فلا بأس أن نسبِّح.

obeikandl.com

التوبة من التقصير

يتاب من التقصير، فإن الله - سبحانه وتعالى - يرفع رسوله ﷺ دائمًا منزلة، فكان يقول: «إنه كان يستغفر من المنزلة التي كان فيها قبلها عليه الصلاة والسلام».

وهناك طرفة ذكرها صاحب «الوابل الصيّب» في مسألة من دخل الخلاء ثم خرج وقال: غفرانك.

وفي الصحيح أن الرسول ﷺ كان يقول: غفرانك إذا خرج من بيت الخلاء..

إذًا ما هو السر في أن المسلم إذا خرج من بيت الخلاء قال: غفرانك؟

لأهل العلم رأيان:

الرأي الأول:

غفرانك في التقصير في تركنا للتسبيح في أثناء قضاء الحاجة.

انظر إلى الأولياء لله حتى في أثناء قضاء الحاجة ما سكتوا؛ بل استغفروا.

الرأي الثاني:

قيل: غفرانك ما أدينا شكر النعمة، أطعمتنا وأخرجت الطعام ولو بقي الطعام قتلنا.

باب التوبة مفتوح

باب التوبة مفتوح للتائبين، وقصص التائبين كثيرة، حتى إن الرجل الذي قتل مئة نفس غفر الله له.

وبعض الشباب ممن دلس عليه الشيطان يقول:

أنا لا يمكن أن يتاب علي.

أنا ليس لي توبة.

أنا ما تركت خطأ إلا وارتكبته.

فنقول له:

obeikandl.com

هل أنت أكثر جرمًا ممن قتل مئة نفس معصومة وتاب إلى الله وتاب الله عليه؟ ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرت الله غفر لك.

أخطار في طريق التائبين

أولاً: تعاظم الذنب

من الأخطار التي تواجه التائبين والعابدين والعائدين إلى الله: تعاظم الذنب.

بعضهم يحبط نفسه ويصاب بإحباط، ويظن أن الله لا يغفر له أبدًا، فيترك التوبة، حتى إن بعضهم ترك العودة إلى الله والإنابة والتوبة بسبب أنه قال:

الله لا يمكن أن يغفر لي، وقد ظن بالله ظن السوء.

فالله - سبحانه - يغفر لمن تاب وأناب، وهذا الإحباط من الشيطان.

ثانيًا: التسويف

فإذا قلت لأحدهم: تب إلى الله قبل فوات الأوان.

قال: سوف أتوب.

سوف أفعل إذا تخرجت.

إذا كَمل شبابي.

إذا حصنت نفسي بزواجي.

إذا.. إذا.. فتأتيه سكرات الموت، ويقبضه ملك الموت، فيعود إلى الله خاسرًا نادمًا.

ثالثًا: تزيين الشيطان ورفقة السوء

الشيطان يزين لصاحب المعصية معصيته.. ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ (فاطر: ٨).

ورفقة السوء يزينون، فإن كثيرين - على سبيل المثال - ممن وقع في شرب الدخان إنما هو بالتزيين.

obeikandl.com

فيقول الصاحب ساحب: يا أخي ما يضرك أن تجرب الليلة وما هي إلا سجارة، فجرب وإذا لم يعجبك هذا فتب إلى الله - سبحانه وتعالى - وحتى في القرآن ما سمعنا على آية تنص على الدخان، ثم إن هناك كثيرًا من الناس يشربون الدخان، وهو تكييف.

فيأتون من هذه المداخل حتى يتورط في شرب الدخان، ثم يجرونه إلى المعاصي واحدة تلو الأخرى، فجلساء السوء أعدى من الجرباء.

الحسنات يذهبن السيئات

قال - سبحانه وتعالى - في محكم التنزيل:

﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ (هود: ١١٤).

وسبب نزول هذه الآية: أن رجلاً من الأنصار ضعفت نفسه البشرية ولمس امرأة أجنبية، لكنه فر إلى الشيخ إلى المعصوم يخبره بالذنب، ويقول: هلكت.

فقال ﷺ: ماذا فعلت؟.. فأخبره.

قال - عليه الصلاة والسلام -: «ما أعلم في ذلك حتى ينزل علي (يعني حتى يأتيني وحي أفتيك به)، فأنزل الله:

﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** ﴾.

قال: ألي يا رسول الله خاصة؟

قال - عليه الصلاة والسلام -: لك ولمن عمل من أمتي بعملك إلى يوم القيامة».

والصحيح أن هذه آية في الفرائض، ولله الحمد أنها في الفرائض.

فقال تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ** ﴾.. صلاة الفجر وصلاة العصر.

obeikandl.com

﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾.. صلاة المغرب والعشاء.

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾.. ومن أدخل فيها النوافل فقد أصاب.

ركعتا التوبة

عن أحمد بسند صحيح أن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، أبا الحسن - رضي الله عنه وأرضاه - قال: كان الرجل من أصحاب الرسول ﷺ إذا حدثني عن رسول الله بحديث استحلفته فإن حلف صدّقته، وحدثني أبو بكر - من يستطيع أن يقول لأبي بكر: احلف - وقال: صدق أبو بكر، قال سمعت الرسول ﷺ يقول: «**ما من عبدٍ يذنب ذنبًا فيتوضأ ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله من ذاك الذنب إلا غفر الله له**».

ثم تلا: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

وتسمى هذه ركعتي التوبة، وهى ثابتة وصحيحة، وأرشد بها إخواني، فمن فعل سيئة أو خطيئة كبرت أو صغرت أن يذهب إلى الماء وليتوضأ وليصلِّ ركعتين، ثم يستغفر الله من ذاك الذنب.

ذنب كفارته الصلاة

في الصحيحين: «أن رجلاً أتى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وهو في غزوة من الغزوات وقد أصاب هذا الرجل أمرًا يوجب حدًا عليه..

فقال للرسول ﷺ: لقد أصبت حدًا.

فسكت عنه - عليه الصلاة والسلام - فلما انتهى - عليه الصلاة والسلام - من الصلاة قال: **أين فلان؟**

قال: ها أنا يا رسول الله.

قال: **أصليت معنا؟**

قال: نعم.

قال: «**اذهب قد غفر الله لك ذنبك بصلاتك**».

هذا الحديث في الصحيحين، وهو ثابت وشرحه النووي.

ومن معاني هذا الحديث قيل: «إن الرجل كان يظن أن على هذا الذنب حدًا، ولكن لم يكن عليه حد، ولو كان عليه حد لأقامه ﷺ، لكن هذا الذنب ليس عليه حد وكفارته الصلاة وقد حصل».

وقيل: «بل كان هذا الذنب قبل أن تنزل الحدود، فجعل ﷺ كفارته الصلاة» والله أعلم.

وحديث علي في صلاة التوبة رواه أحمد في «المسند»، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

ممحاة الذنوب

في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات أيبقى من درنه شيء؟**

قالوا: لا، يا رسول الله.

قال: **فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا**».. أو كما قال ﷺ.

قال بعض السلف: «تحترقون تحترقون ثم تصلون فيكشف ما بكم».

وهناك قال: «قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفئوها بالصلاة».

غسل الخطايا بالوضوء

عند مسلم في الصحيح: «**من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره**»، وهذا في الصحيح عن أهل الصغائر، أما أهل الكبائر فلابد لهم من التوبة.

obeikandl.com

وعند مسلم في الصحيح: قال - عليه الصلاة والسلام - من حديث أبي هريرة: **ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة**».

وإسباغ الوضوء معناه: تعميم مواطن الوضوء بالماء، وإدخال الماء إلى البشرة، والوضوء على منهج السنة، أسبغ الوضوء، وخلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائمًا.

وقيل: إن المكاره هي شدة البرودة، إذا برد الجو، فأسبغ الوضوء حتى في شدة البرد والثلج وشدة الشتاء، فبهذا الإسباغ على المكاره تكفر عنك الخطايا.

ولا يصح من قال على الجروح؛ لأن هناك رخصة لمن به جرح ألا يتوضأ عليه.

كثرة الخطا إلى المساجد

من مكفرات الخطايا كثرة الخطا إلى المساجد، فكلما بَعُدَ البيت عن المسجد كان الأجر والثواب أكبر، حتى إنه روي عن ابن عمر أنه كان يقارب خطاه إذا ذهب إلى المسجد حتى كأنه نملة، هكذا في الحديث؛ لأن كل خطوة ترفع درجة، وتحط سيئة ويكتب بها حسنه، وهذا فقه عجيب لابن عمر.

وفي الترمذي: أن رجلاً من الأنصار كان بعيد الدار عن مسجد الرسول ﷺ، فقال له أصحابه: لو اشتريت حمارًا تركبه إلى المسجد في ذهابك وإيابك.

قال: لا.. إني أسال الله أن يكتب لي ممشاي ورجوعي إلى بيتي، فأخبر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بذلك، فقال:

«**بشروه أن الله قد كتب له ذهابه ورجوعه إلى بيته**».

وفي السنن: «**بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**».

obeikandl.com

«**وانتظار الصلاة بعد الصلاة**» أي إذا صليت انتظر الصلاة التي بعدها.

قالوا: انتظارها في المسجد، وهذا قيل، ولكن الظاهر والله أعلم أنه انتظارها بالقلب، ومراعاة الوقت.

وذكر الإمام أحمد عن عدي بن حاتم في كتاب «الزهد» قال: ولا دخلت علي الصلاة إلا كنت لها بالأشواق.

فالصالحون دائمًا ينظرون إلى الوقت، ويراعون الزوال، وينظرون إلى ساعاتهم: هل أذن؟ كم بقي على الأذان؟ كم يؤذن عندكم؟ قلوبهم معلقة بالمساجد.

وأحد السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة: «**رجل قلبه معلق بالمساجد**».

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى

فهيج لوعات الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما

أطار بليلى طائراً كان في صدري

كرامة أولياء

صاحبت أخًا كان يدرس معنا، وهو الآن في نيجيريا، وقد أسلم على يده آلاف الناس.

كان من المكثرين في قراءة القرآن، وإذا رأيته تذكرت بلال بن رباح، وكان فيه من الولاية ما الله به أعلم.

كان ينام إذا قرب ثلث الليل - وكان يخبرني سرًا من باب ذكر الأعمال الصالحة - ويقول لي: كأن من يوقظني بيده يقول: «قم لصلاة الفجر».

ويقول: في مرة كان في سفرٍ وسهر حتى قرب الفجر، واضطجع، وقبيل الأذان كأنه سمع هاتفًا يقول: «قم للصلاة»..

﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (العنكبوت: ٦٩).

سمها ما شئت كرامة أولياء أو غير ذلك، ولكن خذها كالوردة استنشقها ولا تعكها فتَفسد عليك.

وقد سمعت رجلاً آخر يقول: «إذا سمعت الأذان كأني على الجمر حتى أذهب إلى المسجد» فلله در هذا القلب الحي.

وقد كان نجار من الصالحين إذا سمع الأذان وهو رافع المطرقة رماها خلفه وألقاها، وذهب للصلاة مجيبًا دعوة الحق.

إجابة النداء

جاء في السنن: عن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقطع اللحم معها - رضي الله عنها - يمسك وهي تقطع، أو يقطع وهي تمسك، فلما سمع الأذان قام كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه، وألقى السكين..

وقل لبلال العزم من قلب صادق

أرحنا بها إن كنت حقًا مصليا

توضأ بماء التوبة اليوم مخلصًا

به تلقى أبواب الجنان الثمانيا

النور الرباني

تولى إمارة المدينة رجل من آل حزم، وآل حزم أسرة علم، أسرة عبادة وزهد، فلما تولى هذا الأمير الإمرة كأنه ترفه قليلاً، وقد كان بيته في العوالي، فكان يأتي في الظلمات إلى مسجد الرسول ﷺ، فوضع سُرجًا، يعني وضع مصابيح فيها زيت تضيء له الطريق.

فكتب له الخليفة عمر بن عبد العزيز - الخليفة الزاهد الراشد - رسالة قال فيها: «سبحان الله!.. أنسيت: العشيات»؟

أنسيت: «**بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»؟

قال: ذكرني أثابه الله، فأطفأ السُرج؛ لأن هناك نوراً يغنيه عن ذاك النور.. ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ (النور: ٤٠).

فمن نوّر قصره وبيته بأنوار الكهرباء، ثم ترك أنوار رب الأرض والسماء لا نور له..

ومد بالنور في الأيدي قد اختلفت

على الصراط وهذا الجمع محتفل

يقول ابن المبارك في قصيدة له طويلة:

هل ينفع العلم قبل الموت صاحبه

قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ (الحديد: ١٣). يكفيكم نوركم الذي زعمتم في الدنيا.. ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٣).

وهناك على الصراط قال: يقف فينطفئ نور المنافقين، فيقفوا في الباب حائرين؛ لأنهم بالوحي مااستضاؤوا، بل كذبوا فنالهم جزاء.

مااستضاؤوا بنور الوحي الذي بعث به الرسول ﷺ.. ﴿نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢).

أين ما يدعى ظلامًا يا رفيق الليل أينا

إن نور الله في قلبي وهذا ما أراه

قد مشينا في ضياء الوحي حبًا واهتدينا

ورسول الله قاد الركب تحدوه خُطاه

من يركب في سفينته ﷺ يرَ النور، ويمتلئ قلبه بالنور، ومن يتخلف عنه لا يغنِه نور الدنيا.

فالذين لا يذهبون إلى النور في المساجد، نور الصلاة، نور المحاضرة، نور الدروس.. أين يجدون النور؟!

فمحمد ﷺ نور، والقرآن نور، والسنة نور، والإسلام نور، فهو نور على نور.

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض ﴾ - تأمل الوصف -

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (النور: ٣٥-٣٨).

نوره - سبحانه وتعالى - كمشكاة هذه المشكاة من السماء فليست للمعسكر الشرقي، ولا للمعسكر الغربي، وليست من دول عدم الانحياز، فالزيت نفسه يضيء فكيف النور؟!

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾..

ثم قال سبحانه: ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾.

وقف أبو تمام يحيي المعتصم في انتصاره، والوزراء والعلماء ورجال الدولة أمامه فقال:

ما في وقوفك ساعة من باس

تشفي غليل الأربُعِ الأدراسِ

إلى أن مدحه بقوله:

إقدامُ عمرو في سماحة حاتم

في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال الطبيب الفيلسوف الحارث بن كلدة:

ما زدت يا أبا تمام على أن وصفت الخليفة بأجلاف العرب (الأعراب).

فتوقف أبو تمام قليلاً ليعتذر، فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه

مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره

مثلاً من المشكاة والنبراس

قال الطبيب الفيلسوف: هذا لا يعيش طويلاً، لأن عقله يأكل جسمه، أو يَقُدُّ جسمه قدّاً، أي: يقطع.

غفران الذنوب

في الصحيحين:

«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفيه:

«من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي الصحيحين:

«من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

وفي مسلم:

«إن الإسلام يهدم ما قبله وإن التوبة تجب ما قبلها».

وفي الصحيحين:

«من قال: سبحان الله وبحمده في يومه مئة مرة حطت ذنوبه ولو كانت كزبد البحر».

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

obeikandl.com

«**الركن الثالث من هذه الوصية: وخالق الناس بخلق حسن**».

فلما انتهى من حقوق الله - عز وجل - على عبده ذكر حقوق الناس عليه قال: «**خالق الناس بخلق حسن**».

والله ذكر الخلق الحسن، وأصوله في القرآن كثيرة كقوله - سبحانه وتعالى - في رسوله ﷺ:

﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم: ٤).

﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ (فصلت: ٣٤).

﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾ (الفرقان: ٦٣).

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ (البقرة: ٨٣).

وقد نظمت أبياتًا في هذه المعاني كثيرة، ومن ذلك ما قلته في أحد الفضلاء:

يغضي عن الفحشاء من خوف الردى

ويلين للإخوان والأصحاب

حسن الخلق

عن الترمذي وغيره قول الرسول ﷺ:

«**ألا أنبئكم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون**».

والأكناف هي أطراف الشيء والأجنحة، يعنى يوطئونها للناس، ويألفهم الناس ويألفونهم كالزيارة والقرب والمساءلة.

وما رواه أحمد وأبو داود وابن حبان:

«**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**».

وهذا حديث حسن، وهو صحيح المعنى، فإن بعض الناس يحسن تعامله مع الآخرين وهو قليل الصيام وقليل النوافل، لكن يدرك أكثر مما يدركه كثير النوافل وكثير الصيام الذي يكون شديد الغضب وسيئ الخلق.

فبعضهم يصوم النهار ويقوم الليل، لكن إذا سلّمت عليه غضب فهذا كيف يصلح عمله؟!

وروى أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان:

«**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، ثم ذكر أن صاحب حسن الخلق يدرك درجة الصائم القائم**».

الجزاء الفردوس:

وعند أبي داود بسند صحيح والطبراني في «الكبير» قال:

قال المصطفى ﷺ:

«**أنا زعيم - والزعيم الوكيل و الغريم والقائم بذلك والمتكفل - أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**».

وأعلى الجنة الفردوس، وسقفها عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنان، فمن حسن خلقه مسكنه أعلى الجنة في الفردوس، نسأل الله أن نكون منهم.

لا تغضب

نهى ﷺ عن الغضب، حتى إنه أوصى رجلاً فقال:

«**لا تغضب.. لا تغضب.. لا تغضب**».

obeikandl.com

قال بعض المطلعين من المربين أبلغ نظرية في الأخلاق نظريته ﷺ وهو يقول للرجل: لا تغضب، ولو اختصر الخلق في شيء لاختصر في كلمة: لا تغضب.

وإذا أردت أن توصي أحدًا بوصية في حسن الخلق قل: لا تغضب، بل ابسط وجهك، وابتسم للآخرين، ولا تكفهر، فقد قال أهل الطب: إذا عبس الوجه انعقدت تسع عشرة عضلة.

وإذا تبسم الوجه انطلق ما ينعقد إلا عضلة، فأنت توفر بهذا تسع عشرة عضلة، وبذلك منعت القلب من الاحتراق، ومنعت الوجه من العبوس.

والعبوس ليس في الإسلام، والعجيب أن بعض الناس يريد أن يظهر العبادة والدين والزهد في وجهه، فتجده يظهرها في ثوبه وفي وجهه ولكن قلبه ليس من ذاك، ودينه ليس من ذاك.

حتى إن ابن الجوزي يقول في، صيد الخاطر: «رأيت أناسًا يتزمتون ويظهر عليهم العبوس ويظهرون التعبد للناس، وإن القلوب تنفر منهم، ورأيت أناسًا يتبسمون ويمزحون، وإن القلوب تطوف بهم».

لأن الحب من الواحد الأحد وليس من الناس، فأنت لا تتصنع للناس.

أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها

مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

هكذا يكون التعامل عفويًا أن تعامل الله - عز وجل - وما عليك من أحد، ولكن عليك بحسن الخلق.

أفضل الفضائل

روى أحمد في المسند والطبراني في «الكبير»:

«أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وأن تعطي من حرمك، وأن تصفح عمن شتمك».

والحديث فيه ضعف، ولكن هذه الخصال من أفضل الفضائل، فليس الواصل بالمكافئ، فإن تصل من وصلك فذلك كل يفعله، حتى في عالم الحيوانات، وحتى في عالم الكفر، ولكن من كمال الفضائل أن تصل من قطعك.

وأن تعطي من حرمك، فكثير من الناس يعطون من أعطاهم، ولكن من حرمك من شيء وأعطيته، ومن شتمك تصفح عنه فهذا من أخلاق النبوة.

وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان:

أن الرسول ﷺ سئل: ما أفضل ما أعطي المسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «**حسن الخلق**».

تَفَكُّر

تفكر في نعمة الله علينا بالماء تجدها من أجلِّ النعم، وتذكَّر إذا عطشت لو منعت من الله كيف يكون حالك ولو قدمت لك مائدة فيها من كل ما لذَّ وطاب وليس عليها ماء لما راق لك شيء ونغصت عليك المائدة، والحمدلله الذي خلق لنا الماء ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (الأنبياء: ٣٠) وما أحسن الماء شربًا ووضوءًا وغسلاً وسباحة.

وقد كاد الماء أن يجف في بلادنا لذنوب العباد من قطيعة الرحم وشهادة الزور والظلم حتى إن الكاتب هيكل لما عيّن عندهم وزير للمياه قال: لماذا وزير للمياه بعدما انتهى الماء؟ لماذا يكون وزير للهواء بدلاً من الماء؟!!

وقد ذكر بعض المؤرخين أن أحد الناس كان محبوبًا عند الناس فلما تولى الوزارة استعدى الناس بسوء تصرفاته، فقال فيه الشاعر:

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق

ومن الوزراء من أخذ الوزارة لتكديس الأموال، وتلميع شخصيته، فدار به الكرسي فسقط فذهب الجاه وبقي الحساب، وكلما تولى وزير سب الذي قبله ﴿**كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا**﴾ (الأعراف: ٣٨).

تهافت

حذار لأحد أن يغتر بالمنصب، فقد سقط بفرعون منصبه، ومنهم من هنئ ثم عُزي، ومنهم من لم يكمل فرحة الولاية حتى عزل، ومن الوزراء ابن مقلة قُطِّع ثم قتل ثم صلب، وابن بقية قتل ثم صلب، وابن الفرات عُذِّب ثم قتل، بل هذه حالة عامة أهل المناصب المتعلقين بالدنيا، فإنه يجري عليهم من النكبات ما لا يدور بالخيال، وما زلت أتعجب ممن يفرح بالمنصب فرح الأطفال باللعب، وعرفت أصدقاء كانوا متواضعين قريبين، فلما تولوا بعض المناصب تكبروا وشمخوا، وترى الواحد منهم يتكلم بتكلف وغرور وعجب؛ لأنه لا يستحق المنصب، وأنا أقول في نفسي: يا مسكين هذا الخليفة عمر بن عبدالعزيز كان يسرج الزيت بنفسه، بل أبو بكر الصديق كان يخدم المساكين، وعمر بن الخطاب كان يحمل الطعام للفقراء، وأنت يا مسكين لا تستحيي، علام تعجب وتتكبر؟

بنى أحدهم قصرًا ضخمًا وسيعًا فسيحًا وصب في بنائه المال صبًا وزخرفه وزينه وتأنق فيه ودعانا لرؤية القصر، وكان يطلعنا عليه جزءًا جزءًا وهو منبهر معجب تافه فوالله ما زادني له إلا مقتًا، وعجبت من جهله بالدنيا وغرورها وعدم انتباهه لسرعة زوالها وتقلبها بأهلها، هل هي دار خلود فُتُحَبُّ فيا حسرتاه على عشاقها، ونحن أفلحنا في المظاهر الكذابة الخادعة من قصور فسيحة، وسيارات فارهة وأخفقنا في تثقيف العقل والإبداع والعناية بالعمل النافع، الغرب يصنع وينتج ونحن نستهلك.

وقد رأيت البيوت في أمريكا وفرنسا وبريطانيا فإذا هي صغيرة على قدر الحاجة بلا إسراف ولا بذخ مع العلم أن مصانعهم تهدر وتعمل ليل نهار، فلماذا يا إخوان هذه المظاهر الزائفة والخداع المكشوف.

عندنا مثقفون يغطون جدران بيوتهم بشهادات تخرجهم، وما كتب لهم من تقدير وحسن سيرة مع صور الذكريات والإنجازات الوهمية، وإذا أحدهم أستاذ في قسم الجغرافيا، وحارس مرمى، أو في الصادر والوارد، الله أكبر يوم تشاهد هذه

الأمة كأنك أمام عبقرية الشافعي أو ابن رشد أو أنشتاين أو نيوتن، رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، وبعضهم ملأ مجلسه بشهاداته وإذا حضرت صلاة الفجر نام عنها؛ وماذا ينفع عمل باهت دنيوي مع مرض في الدين، بناء أجوف على شفا جرف هار ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقون: ٤). يا عباد الله: النيات النيات، العمل العمل.

زرت أحد رجال التعليم وقد تقاعد من عمله، وقد زاد على السبعين، وهو يصور مقالات أدبية وقصائد، ويجمع مقطوعات نبطية، وعنده تحف مشغول بها من خرز قديم وعملة أثرية وحبات قمح من ستين سنة وغير ذلك، فعجبت كيف أشغل نفسه في هذه السن بأمور تافهة وما علم أن رجله على طرف القبر، وقد أزف الرحيل فأين تلاوة القرآن وتكرار الأذكار؟!! والمسألة توفيق من الله، وكان السلف إذا بلغ الواحد منهم ستين سنة اشترى كفنًا:

لَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَصابي وَأَقبَحُ مِنهُ شَيخٌ قَد تَفَتّى

وينبغي لنا ألا نخادع أنفسنا بل أن ننهي مهزلة ضياع العمر، والزج بكبار السن في حفلات الرقص وتركهم في التوافه والفراغ والوحدة.

لا تصدق

لا تصدق الدراويش الذين يحذرون الناس من الكسب الحلال، وجمع المال الطيب، نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح، فلا تصغ إلى هؤلاء؛ لأنهم يجيئوون بأحاديث موضوعة، ويريدون أن يعيش الناس في حياة الفقر والعوز، وهم جاهلون بسيرة الرسول ﷺ وأصحابه وكان فيهم أغنياء نفعهم المال ونصروا به الإسلام، خطأ من الداعية أن يقول: اتركوا الدنيا بالكلية، تخلوا عن المال، فيصبح المال في يد الفجرة يسخرونه في الفساد، ويبقى الصالحون عالة يشحذون الناس، وإذا أراد أحدهم الزواج وقف بأوراقه عند باب الأغنياء شحاذًا، وإذا ركبه الدين تسوّل أهل الخير فأذل نفسه وأذهب دينه، الله الله في معرفة السنة في هذا .

ومن الدروشة تصديق بعض الساسة أنهم أتقياء بررة بالكلام فقط، بينما الأفعال تخالف، فتجد الظلم وأخذ الأموال بلا حق والتطاول والكِبَر على الناس،

obeikandl.com

وتضييع أمور الدين ثم يخرج الواحد بكلمة يتغزل بالقيم العليا ويمدح الإسلام، وأنه دين العدل ولا بأس به فنصدقه ونصفق له ونهتف له بطول العمر ورفعة الذكر وعذاب القبر، كفى سخرية بالناس ولعبًا على عقولهم، الفعل يُصَدِّق القول أو يكذبه، لو حضر المسلم صلاة الفجر كان أفضل من يمدح صلاة الفجر بألف قصيدة، ثم يتغيب عنها، اقرنوا القول بالعمل وابتعدوا عن الدعاوى الكاذبة الهزيلة.

ومن الدروشة الارتياح لبعض الكتاب والمثقفين مع عدائهم للدين، إذا أظهر بعضهم كلامًا جميلاً وهو يبطن غيره، وقد اغتررت فترة من الزمن ببعضهم كمدحه لبعض تعاليم الإسلام ثم اكتشفت أنه حية رقطاء، فإذا أردت أن تعرف الرجل فاجمع كلامه أوله وآخره وكل ما كتب ثم احكم عليه بعدما تعرف منهجه، ووجدتُ بعضهم يجاملنا فإذا خلا صب جام غضبه على الدعاة ووصفهم بالدراويش ونحو ذلك، فابتعدت عنه، ومن السذاجة الركون إلى من في قلبه مرض؛ لأنه مهما جاملك فلا يزول من قلبه بغض الدين وأهله وكل تعليقاته ومزحه وسخريته لمن ينتسب إلى هذا الدين ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾ (المنافقون: ٤) ولهذا تجده يستخدم لغة رمزية في كتاباته ليخفي مكره، فخذ حذرك، وانصر دينك ولا يأخذك هؤلاء الأوباش على غِرَّة.

موقف

دخل عليّ رجل، واغتررت بمظهره وتباكى عندي، وذكر لي أنه لن يتركني وحيدًا، بل سوف يقف معي وطلب مني مبلغًا من المال ليتاجر فيه لوجه الله، ويعيد الربح ورأس المال لي، ففر وتزوج بمالي، واختفى عني وماطلني، وضحك عليّ وصار كلامه كله هباءً منثورًا وانخدعت أنا به، فلا تنخدع بالمظاهر يا أخي وسوف يظهر لك الرجل عند الدرهم والدينار، وبعضهم يبيع ذمته بثمن بخس دراهم معدودة، وأعوذ بالله ممن يتستر بالدين، وقد عاملت بعض من ظاهره الخير فتمرد علي وماطلني، ورأيت من سوء معاملته عجائب؛ فكيف نقدم الإسلام للناس ونحن بهذه الحالة «طبيب يداوي الناس وهو عليل» فعندنا مرض هو فصل القول عن العمل.